حكاية زهرة

حنان الشيخ

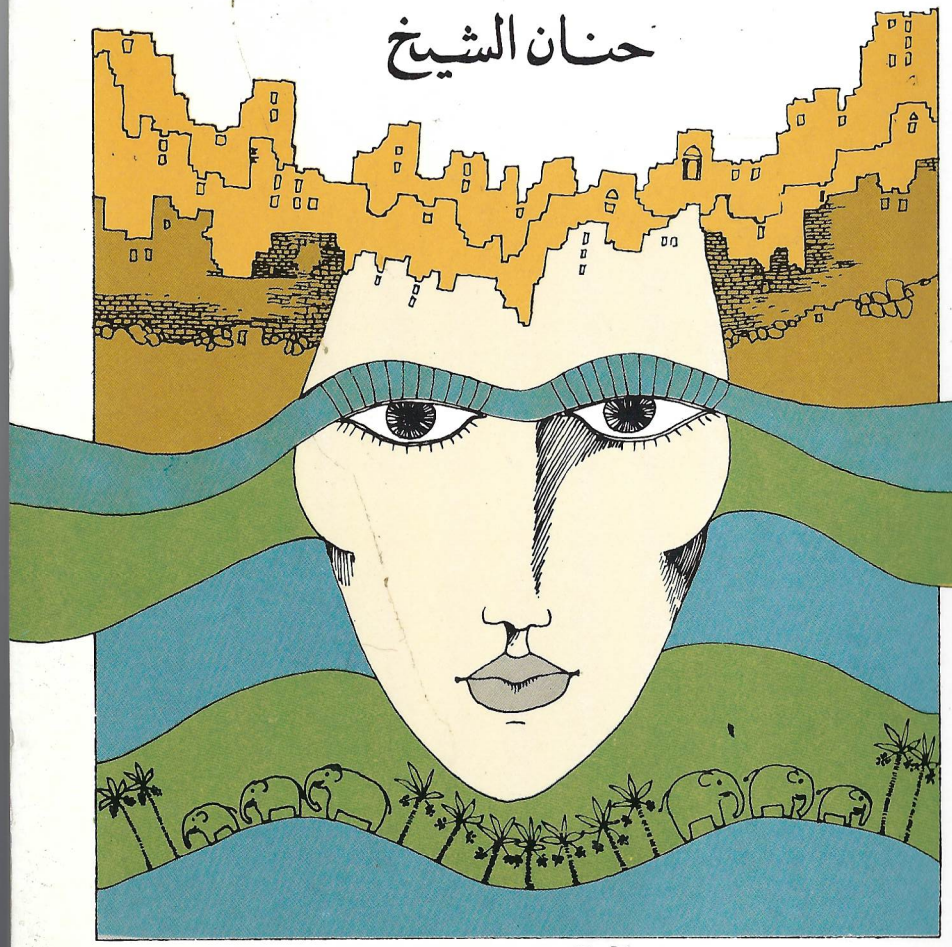

دار الآداب

حنان الشيخ

حكاية زهرة

رواية

دار الآداب

وقفنا خلف الباب نرتجف. سمعت دقّات قلبي تختلط بنبض يدها المطبقة على فمي. كانت رائحة يدها صابوناً وبصلاً. وددت لو تضع يدها على فمي إلى الأبد. كانت يدها بيضاء سمينة ودافئة. كنا في ظلام الغرفة مختبئتين وراء الباب المشقوق. جلبة ووقع أقدام اقتربت منا قبل أن يفتح الباب المشقوق ويدخل النور كله. بحركة لاشعورية التصقنا بالحائط وكان الخوف قد انتقل إليّ عبر سلك غرس بزندها وزندي في آن. أصابعها هذه المرة شدّت على فمي ـ لاحظت أن دقّات قلبي ذابت ونبض يدها مات من شدّة الخوف. وما أن أطل الرأس الكبير السمين يحدق في الغرفة، يرانا ولا يرانا، حتى فهمت سرّ الخوف وسر يدها المطبقة على فمي. ورغم أن ما فهمته كان مهزوزاً. فهي ألبستني كالمعتاد البنطلون الكحليّ الصوف والكنزة الخضراء المحاكة بالصنارة. وضفرت شعري وهي تغمس المشط في كأس من الماء. ونبهتني بصوت عال سمعه والدي أنها ستضربني إذا عاندتها، كما أفعل كل مرة عندما تصطحبني إلى الدكتور شوقي. وأنا أسمعها تقول هذا، حاولت أن أتذكر إذا كان الدكتور شوقي قد حقنني. ولم أتذكر. وأمسكت بيدي ونحن ننزل الدرج. أحاول أن أتذكر. وسألت أمي: «لماذا يريد أن يحقنني؟ هل لأنني كسلانة؟ أم لأن المعلمة قالت إنها ستدهن وجهي باللبن وتضعني في غرفة الجرذان لأنني دائمة التبّول في الصفّ؟». وسمعتها ترد عليّ قائلة: «أوف

اسكتي، بعت سواري حتى أشتري لك حقن الكالسيوم، مش شايفة اجريك قديش مقوّسين؟». وعادت فأضافت وهي تنظر إلى قدميّ: «كانت واحدة بالشمال وواحدة باليمين».

وقفنا خلف الباب. كانت دموعي داخل رأسي تحاول أن تنفر لكنها أضاعت طريقها وما عادت تعرف من أين وإلى أين. نحن واقفتان. ويدها البيضاء لا تزال تشدّ على يدي بدلاً من فمي. خاصة عندما برز وجه أبيض عبر الباب الذي فتحه صاحبه نصف فتحة وتفرس في الظلمة ورآنا وما رآنا. وارتاحت يدها البيضاء عندما اختفى وجهه وأقفل الباب. رغم أن جسمينا كانا متلاصقين كنت أشعر بالبرد وبالخوف. بعد وقت لم أستطع تقديره، كما لم أستطع استيعاب كل الذي حدث والذي يحدث سوى أني بردانة وخائفة، أدرت المفتاح في ثقب الباب ليدخل منه وجه أعرفه. وجه لرجل رأيته قبلاً يتكىء برأسه فوق حضن أمي. الرجل نفسه الذي رأيته ببذلة لا يزال لونها ونقشها مسجلاً في ذهني. يزورنا مرة ومعه امرأة. الرجل الذي كنت كلما رأيته كان يمد يده إلى جيبه ويعطيني طفلاً من الكاوتشوك الزهري اللون. هذا الرجل كان يحملني كلما رآني. هو الآن واقف قبالتنا يمسك بيد أمي. أمي تمسك بيدي ونجلس ثلاثتنا فوق السرير. أم أني لم أكن أجلس؟ ربما اتكأت على فخذ أمي. الضيق والبرد يحومان حولي بعدما تلاشى الخوف. الضيق لأني أعرف تماماً أننا لسنا عند الدكتور شوقي كما قالت أمي، وكما أكّدت لي وصدّقتها. رغم أن الجدار الذي كنا نمر به ونحن قاصدتان الدكتور شوقي كانت عليه لطخات سوداء، وكنت أعرف حكاية الوطواط الذي يهجم كل ليلة على شجرة التوت التي يملكها (محمد التوتة)

ويلوث الجدار المقابل ببقع كحلية وأرجوانية. كنت دائماً أتساءل لماذا يلطخها فوق الجدار عوض أن يأكلها؟ لماذا هو يختار شجرة التوت؟ اليوم لم أر جدار التوت ولا محمد التوتة. ولم تمّر أصابعي فوق البقع الكحلية والأرجوانية.ما التفتّ صوب شجرة التوت حتى أبحث عن الوطواط. ولم أسأل أمي إذا كان الوطواط يحب نقر عيون الناس.

أمي أكدت لي، وتؤكد لي دائماً أن الطرق إلى بيت الدكتور شوقي صحيحة. وصدقت. وكان عليّ أن أصدق لأنه قيل لي هذا، رغم أن الأدلة كانت تقول العكس. لكنني صدقت. رغم أن هذا الرجل هو غير الدكتور شوقي. لكنني صدقت، رغم أن جو الزيارة كان مختلفاً والحقنة لم تغرز في فخذي ذاك الصباح لكنني صدقت. عبثاً أحاول أن أتذكر تفاصيل ذاك الصباح في تلك الغرفة المزيّفة. عبثاً أحاول أن أتذكر الكلام الذي تبادله الرجل مع أمي ولا أستطيع. هل لأني كنت صغيرة؟ والأيام الكثيرة التي تلت تلك الزيارة أخذت تتكاثف فوق الماضي البعيد؟ أم أنني كنت أتوقع زيارة الدكتور شوقي، وكان دماغي قد سجل بين صفحاته منظر الغرفة؟ أثاث الغرفة. وجهه المألوف. علقت هذه الأشياء كلّها في الذاكرة إلى درجة لم أستطع إلا أن أراها، رغم أني لم اشاهدها قط. لكنني أذكر عندما وصلنا إلى الشام، أنا وأمي وصديقتها التي ما أحببتها قط والتي بدورها كانت تشعر بكرهي لها. كنت أكره لونها الغامق وغلاظة شفتيها وجديلتها المجعدة السميكة. كانت تظهر ضيقها مني تارة وهي تحدجني بنظرات قاسية وطوراً لتقول عندما كان السائق يقف بناء على طلب أمي حتى أتقيأ عقب وشوشتي لها «ولك خلصينا يا بنت». ولحظة أترجل من السيارة كان الغثيان يغيب ويبدأ الشعور بالذنب مع عودتي إلى السيارة خاصة

عندما ألتقط بلمحة بصر نظرات صديقة أمي الملأى بالضيق والاشمئزاز. وكان توقّف السيارة يتكرر ثانية وثالثة. وفي المرة الرابعة رفضت أمي الاستماع لي فيما كانت صديقتها تواصل التدخين ومضغ اللبان معاً. آنذاك لم أستطع السيطرة على نفسي. فتقيأت في حضني أولاً ثم على أمي التي سحبت يدها اليسرى من فوق فخذ السائق وعلا صوتها وصوت صديقتها.

نحن في الشام، هكذا من البارحة وأنا أقول لنفسي أنا ذاهبة إلى الشام. أنا في الشام. وكنت قبل قليل في مكان آخر. لا فرق، إلا أن الغرفة الضيقة التي مددتني أمي على أحد سريريها جديدة بأثاثها ونقش بلاطها. كنت أود لو أظل مستيقظة، لكن يبدو أن النعاس والجوّ الحارّ قد غلباني، كأنني عندما سمعت دقاً على الباب لم أستطع أن أفتح عيني من التعب. كان الدق يزداد والأصوات تتعالى قائلة: «افتحوا الباب هذا أوتيل موسوق». وثبت واقفة ورأيت أمي تنهض من بين الشراشف والرجل يدير وجهه وجسمه عن عيني وهو يلبس بنطلونه. استغربت ذلك الوقت أن أرى الرجل وأمي في سرير واحد. هل لأني كبرت وصرت أستوعب الأشياء، أم لأنني كنت أعرف أن أبي وأمي ينامان باستمرار في سريرين منفصلين؟ واستغربت الدقّ على الباب والصياح اللذين توقّفا عندما فتحت أمي الباب ورآني الرجل الغاضب ملتصقة بها.

أنا الآن في سنّ أستطيع أن أميز معها تماماً الضيعة عن المدينة. فأنا خائفة من رمد العيون. لذا لن آكل التين. لن أمسك شجرة تين. سأغسل يدي من إبريق صفيح أضغط عليه بين فخذيّ وأنحني معه مسيطرة على توازنه. فتنساب المياه بهدوء ودون أن تندلق مرة

واحدة. كما كان يحدث عندما جئت إلى القرية للمرة الأولى. هذه هي القرية: بيض مقلي فوق شوك مشتعل. لدغات البرغش في وجهي وجسمي. ومصطفى الجالس عند باب خيمة القش يدندن «ضمنو ضمضووضو». التين لن آكله ولن أمسك به، ولن ألمس عيني وأنا أسير بين أشجاره. عندما كان مصطفى يحملني فوق كتفيه ويسير بي وهو يدندن «ضمنو ضمنو»، كنت أخبىء عيني بيدي. أطلب منه العودة إلى خيمة القش حيث أمي. كان يسألني عن الذي قال لي إن التين يحمرّ العيون؟ كنت أجيب: «سمعت الجارة تقول ونحن في بيروت نستعد للمجيء إلى الضيعة: «رايحين تّينوا وتّرمّدوا».

وكان مصطفى يضحك، يضحك ولا يرضى أن يعيدني إلى خيمة القش إلا بعد أن تنهمر دموعي. وكانت دندنته قبل أن نصل إلى خيمة القش بخطوات قليلة تعلو وترافقها أغنية: «جينا وجينا وجينا جبنا العروس وجينا». وتطل أمي بفستانها الأزرق المعرّق، وشعرها المرفوع عن عنقها بمشط. ويطل وراءها رجل الغرفة. الرجل الذي يقبّلني ويحملني ويجلب لي الدمى الصغيرة. يطل ويداه على منديل أبيض فوق أنفه. يقرب رأسه حتى رقبته ويشدّ على أنفه ويعود فيرجع رأسه إلى الخلف ثم يفتح المنديل ويعود فيضعه على أنفه ويشتم. أمي قلقة تحاول أن تفعل شيئاً، تحاول أن تقول شيئاً: «كيف فاتت هالملعونة؟». ومصطفى لا يستفهم، إنه يعرف أن ذبابة دخلت أنف الرجل. وشعرت فجأة أن الضيعة قد أفلتت من يدي وأن أمي لم تعد معي. هذا الرجل لحق بنا إليها، حيث أنا وأمي والريح.

أخذت الهوّة بين أمي وبيني تكبر. تزداد عمقاً، تتوسّع، تتشقّق، رغم كوننا كالبرتقالة وصرّتها. هذا التقارب، هذه الأيام الممتدّة، هذه

الشمس التي تنبت فوق جلستنا وتنتهي ونحن نركض إلى البيت. هذا الوقت كله جعلني أحفظ أمي جيداً. أحفظها وهي معي. وأحفظها وهي بعيدة. كنت أفكر وأنا أنظر إليها كم أودّ أن أشدها إليّ، أن أشدّ نفسي إليها، أن أمسك بوجهها وأقرّب عينيها من وجهي. أن أختفي داخل ذيل فستانها وأكون قريبة منها أكثر من البرتقالة وصرّتها. لكن كلما فكرت هكذا حقدت عليها وارتجفت وجرفت معي الحقد والوجع والتمنّي. كلّما عاندتها ونفرت منها، تجاهلتني هي لا عن قصد. في حياتها كان هذا الرجل. ما تبقّى حوله رماد طائر.

كنت أسأل نفسي، والشعور الذي لا أستطيع إعطاءه صفة يلازمني. وها أنذا أسأل نفسي الآن ماذا كان هذا الشعور؟ هل كان غيرة؟ هل كان شفقة على والدي؟ أم أنه الخوف الذي يضغط عليّ في كل مرة كنت أرافقها فيها لتلتقي بهذا الرجل. كان الخوف يجعلني أرى كل شيء كأنه من خلف زجاج انهمرت عليه زخّات مطر، وعبر مرآة تغبّشت أثناء دوش ساخن. أفكاري لا تعود تستند على شيء ولا تطلب شيئاً. إنها مشلولة تماماً.

عندما شاهدتها مرة تحت شجرة جوز خضراء، رأسه في حضنها تغني له «أيها النائم» كان هو مغمض العينين، مغمض الوجه والشعر. جسمه يتمدد بسلام تحت حجارة الجبل البنّية المحمرة بلا غبار ولا رمل. حجارة نظيفة شهية، كأن جدول ماء انساب فوقها وتركها تجف تحت أشعة الشمس وشجرة الجوز. كلما شاهدتهما وسمعت صوتها قرفصت كامرأة عجوز منهارة وأخذت أبكي بصوت يسمعه كل من حولي حتى الفضاء، ما عداهما. لم تكفّ أمي عن الغناء. ظل

صوتها يهمس أغنية «أيها النائم». بينما اخذت أغنّي: «ست الحبايب يا حبيبة، يا أغلى من روحي ودمي». تجاهلا غنائي. فعدت أبكي من جديد. ورأيت المشهد ذاته، يدها تتحسّس شعره وهي تغني له «أيها النائم». أخذت الألغاز تحلّ نفسها. كلما كبرت يوماً ونظرت إلى الخلف في خيبة وأسف حقدت على أمي أكثر لأنها أدخلتني مغطس الحيرة والتساؤلات والسحر وأنا ما زلت صغيرة. الآن أعرف تماماً لماذا وقفنا خلف الباب نرتجف. ورأس الرجل الذي أطل يرانا ولا يرانا. جدار الوطواط المبقّع، شجرة محمد التوتة، الشام، التقيؤ، السرير الواحد. أعرف الآن سرّ مشينا تحت المطر والوحل يشدّ أقدامنا نزولاً والأشجار كأشخاص لها عيون. وكنا نركض، رأيت أمي تشير بيدها محيّية وقبل أن أرى من الذي تحيّيه شدّتني من يدي وهي تشهق شهقة طويلة. وعدنا نركض تحت المطر، نغوص في الوحل. كان عليّ أن أنتظر اليوم حتى تتفكك هذه الألغاز بلا مساعدة.

أما والدي فكان منهمكاً في الترام. كنت أنتظر اليوم الذي يدخل فيه البيت مع الترام، وطنطنة ساعته ذات السلسال يضعها في جيب بنطلونه الكاكي. كل ليلة قبل أن ينام كانت يده فوق زنبرك المنبّه المستدير تبرمه. وكلّ صباح تمتد يده توقف رنينه. يلبس بنطلونه ويخرج منه ساعته ذات السلسال. يرى الوقت ثم يقربها من أذنه ويعود فيضعها في جيبه. يرتدي قميصه الكاكي أيضاً. يتناول قبعته فيصبح جميعه كاكياً. يقول: «لا تتأخري يا زهرة عن المدرسة، وأنت يا أحمد لا تنسَ تجيب وصل القسط من المدرسة». ويذهب إلى «الكبّانية» ليأتي بترامه ويبدأ نهاره الذي ينتهي مع أول الليل عائداً إلى البيت

يشد الحبل. فيرن جرس صغير في زاوية غرفة الاستقبال. كان هو الوحيد من كل الناس الذي يصر على رنّ الجرس. «كيفك يا بابا، وين أحمد» يعلق قبعة الترام. «وين أمك». وهو يخلع بدلة الترام الكاكية ويسندها إلى المقعد. ولا ينسى أن يمد يده إلى جيبه ويخرج الساعة يدنيها من أذنه ثم يعيدها إلى جيبه: «وين أحمد؟».

حول طاولة الطعام في المطبخ هو وأحمد وأنا. ألمح الملوخية وفوقها بعض قطع الدجاج. هل هذه حصوص ثوم أم قطع دجاج؟. إنها دجاج. لا أستطيع أن أمد يدي. فأنا تناولت العشاء قبل قليل. ملوخية أيضاً، لكن بلا دجاج. المأساة تتكرر، إنها لا تطعمني الدجاج ولا اللحمة. إنها تخبئها دائماً لأحمد وأحياناً لوالدي. إنها لم تنسَ. ربما هي لا تأكل أيضاً الدجاج واللحم. أنا متأكدة من أنها لا تأكل. لقد تناولنا العشاء معاً. غداً عندما نجلس في المطبخ لنأكل سينكشف حبّها. انكشف اللحظة. اننا نأكل الكشك وهي تسكب. لقد ملأت صحني. ها هي تملأ صحن أحمد. إنها تأخذ وقتها. تبحث له عن القاورما. لا تزال تبحث. تنهض لتأتي بملعقة كبيرة ذات ثقوب تنزلها كالصنارة. ها هي القاورما واللحمة المفرومة في الملعقة. ها هي في صحن أحمد. ها هي في بطن أحمد.

أمي تقطع الصمت: «بكره بدي آخذ زهرة معي عالضيعة، بيّي مريض، مصطفى تلفن للدكنجي وقال بيّي مريض». وعادت تقول: «اعطني خمس ليرات». تجهّم وجه والدي لكنه لم يقل شيئاً ولم يعطها الليرات الخمس. لكنها أخذتها من جيب بنطلونه وهو لا يزال في المطبخ. قلت لها إنه يراها. فابتسمت وأنا أشير إلى الصورة المعلقة في الغرفة. كانت صورته في بذلة الترام الكاكية. جاء الغد، رحلنا إلى الضيعة ورأينا جدّي المعافى، الأحمر الوجنتين، الذي يشك ميابر

أوراق التبغ بسرعة وبسهولة كأنه يفتل شاربيه. والرجل نفسه كان معنا في الضيعة، ليس عند جدّي الذي عرف أننا جئنا لأجل ورقة من دائرة النفوس. حتى أن أمي لم ترض أن نجلس أكثر من نصف ساعة في خيمة أوراق التبغ الخضراء، وكنت طوال جلستنا أودّ أن أرتمي بين ذراعي جدّي وأرجوه لو يبقيني معه في هذه الخيمة المؤنسة. لأن ما ينتظرني الآن هو الشعور الذي أخشاه ولا أعرفه: هو الخجل مع الغيرة مع الخوف مع أشياء أخرى. هل سيختار شجرة تفاح؟ برتقال؟ أم زنزلخت هذه المرة؟. السيارة تتوقف على شاطىء البحر. لم أر سوى شجرة واحدة يابسة. ورأيت فوق الرمال البيضاء بعض النفايات. تناولت كعب سكربينة عالية. ولما رأياه في يدي تغامزا وضحكا. آه كم كرهتهما تلك اللحظة. انهما يجعلانني أشعر بالخجل والغربة والتردد. ماذا بعد الآن؟ الجوّ جديد عليَّ. إننا لا نقترب من الشجرة الوحيدة. ولا من البحر. إنما من البيت الصغير. وندخل هذا البيت الصغير الفارغ تقريباً من الأثاث. يتركنا الرجل ليأتي بكيس من السيارة. نتبادل أنا وأمي النظرات. أحاول أن أتفرّس في وجهها متسائلة: لماذا تصطحبني معها دائماً. لماذا تعذبني دائماً؟ هل هي تعرف ما أعانيه؟ ربما لا، فأنا لا أظهر لها سوى سكوتي. وقطع شرودي الرجل الذي همّ بفتح الكيس. أخذ يقطع الفروج المحّمر بيديه. ويقدم لنا قطعه في صحون من كرتون أراها للمرة الأولى. وأمسكت هذه القطعة الهائلة من الدجاج. وفكرت: إذا سألني جدّي هل فرحت يا ابنتي بالفروج لقلت له: «لا لا يا جدي، كنت خجلى أمام الرجل. كنت خائفة أن أحدث صوتاً وأنا أمضغ، وأنا أبلع. كنت خجلى من أن أمدّ يدي إلى فمي لأخرج عظمة صغيرة آثرت أكلها وآثرت الألم الذي أحدثته في زلعومي. كنت خجلى أن أمصّ

اللحم الذي التصق بالعظم. وكانت الرائحة شهّية. وأنا كنت جائعة. لا يا جدي وحياتك ما تهنيت أبداً». ولما انتهينا من الأكل. بدأ نقاش فهمت منه لماذا تصحبني أمي دائماً معها. انها تحتمي بي. تودّ أن نكون برتقال «أبو صرة». تحتمي بي. نقاشهما كان حول ما إذا كانت زهرة تودّ أن تلعب بالرمال. وكان جواب أمي يسبق جوابي. مع أنها تعرف وأنا أعرف أنني لن أفتح فمي. كان جوابها النفي تلحقه بحكاية حلمها ليلة أمس وهي تشد شعرها، وكيف أنها لن تطمئن عليّ إذا كنت قريبة من البحر. وعاد يسأل إذا كانت زهرة تودّ أن تجلس على الدرج لتلعب بهذه الدمية الجميلة، وأخرج من جيبه طفل الكاوتشوك إياه. مدَّ يده وأحاطني بها. وأنا ما زلت جالسة كالتمثال. أجابت أمي بأنها تخاف أن يوسوس لي الشيطان وأذهب إلى البحر. عاد وطلب من أمي أن تنهض معه حتى يريها شيئاً ما في الغرفة الثانية. تبعته وهي تنظر إليّ وأنا أنظر إليها وكأني أرجوها أن تبقى. وداخلني هذيان بأن أشدها إليّ، وأشد نفسي إليها، لكن سمعت الباب يغلق. ولم أعد أسمع شيئاً سوى بكائي. وتمنيت أن أفتح الباب، حين لم افعل، تأكدت من ابتعادي وعدم رؤيتي للمشهد نفسه: رأسه على حضنها. وأصابعها بين شعره وصوتها يغني «أيها النائم». إنه يشبه ما شعرت به وأنا في الحرج عندما ركبت «الدويخة» مع ابتسام. كانت عالية. كانت تدور بين الأرض والسماء بسرعة. وتضعني بين الأرض والسماء كالبرق. وعندما نصل إلى الأرض، كان أسفل جسمي وقدماي تكاد تهرب مني وتتدحرج. وكانت الدويخة تلف وتصعد من جديد بينما كان أسفل جسمي وقدماي تتكمش بي، تعصر قلبي ويدي تضغط على الحديد. العرق يفلتها عن الحديد وأسناني تصطك وأنا ألعن «الدويخة» ونفسي بسبب دخول هذه

التجربة البغيضة. كانت «الدويخة» تعود فتنزل بنا، فأفكر في جهنم. هكذا النزلة ستكون في جهنم. دحرجة الى الهوة. كم وددت أن أفتح الباب، رغم أني لا أعرف ما يجري خلفه سوى رأسه على حضنها أو يدها تطعمه أو يداه تحملانها تحت شجرة الجوز، بينما فردة حذائها تنسل من قدمها. وصوته يناديها «ماما». أكثر من هذا، لم أكن أعرف. لكن بين هذا الرجل وأمي ثمة غموض.

حاولت أن أفكر والصفعات تنهال على وجهي. وصوت ربّ الترام ببذلته الكاكية ينهال على وجهي. ونظرات أمي وصوتها وعصبيتها تنهال على وجهي خوفاً من أن أقول الحقيقة. «قولي الصحيح، وين كنتو تروحوا وين كان ياخذكُم». وأمي تردّ بعويل وصراخ: «والله أنت مجنون يا إبراهيم. أترك البنت. والله كله كذب وافتراء. أترك البنت يا إبراهيم». وهو لا يسمعها بل ينهال بكفه على وجهي وصوته يشد على شفتيّ يحاول إخراجهما من وجهي. الخوف من صاحب البذلة الكاكية ومن ترامه ومن جسمه الممتلىء أخافني. وأخذت أرتجف وأنا أجهش بالبكاء. لكنه لم يغلب أمي وعويلها ولطم وجهها وشد شعرها وهرولتها إلى المطبخ: وأنا ما زلت متسمّرة في الغرفة وكأني ناطور التين الخشبي لا يصدر عني سوى شهقة بكاء بين حين وآخر. سمعت صوت والدي هذه المرة: «والله أنت مجنونة يا فاطمة يا حرام الشوم، نظيفة، بلا عقل» وهي تولول: «خليني بدي موت». ولا أعرف كيف وصلت إلى المطبخ وشممت رائحة الكاز ورأيتها تستند إلى النملية تنتفض من بين يديه، تميل بيديها تحاول فكفكة أصابعه عنها. وتولول «خلّيني.. بدّي موت». وددت أن أعدو إليها أشدّها إليّ أو تشدّني إليها ونعود البرتقالة «وصرّتها». وأخذت أولول وأبكي معها. ولم أعرف أين أقف. وأين موقعي وأين

عـاطفتي ولمن عاطفتي. كـان الموقف محيّـراً. لكنني كنت متأكـدة أنني خائفة منـه. وخائفـة من ضربـاته لي ولها. وهي لا تـزال تنتفض بين يـديه وتـولول. وسمعتهـا بين هـذيانها وولـولتها تقـول: «والله وحياة الكعبـة ما شلحت كلسـاتي قدامـه، بس وصلني مـرة أنـا وزهـرة من ساحة رياض الصلح وكانت الـدنيّ عم تشتي. وحياة ستنـا زينب أنو مـا شلحت كلساتي». وخـارت يدا والـدي قليلاً عنـد سماعـه الجملة الأخيرة ولكن بعد لحظات عاد يصيح كمجنون: «بتحلفي يـا فاطمـة على القرآن؟» ترد عليه بولولة: «بحلف مية وخمسين يمين... بحلف عالقرآن... وبحلف على مزار الست زينب». وتـركها وركضت أنـا إلى الغرفة.

أحاول أن أمسح الأرض من آثار ارتباكي وأفكر بالكلسات. عدت أسمع صراخاً وولـولة من جـديد وأصـواتاً مبهمـة. ترى لمـاذا عادت الولولة؟ انفجرتُ راكضة باكيـة خائفـة صارخـة إلى المطبـخ، ورأيتها مـرمية عـلى الأرض وأبي ببذلتـه الكاكيـة وبجسـده الممتـلىء وفي يـده حزامه الجلدي ينهال عليها وأمـامها القـرآن وهو يقـول لها: «احلفي» ويعـود يقـول: «احلفي». ويصرخ: «احلفي لشـوف»، وهي تخبط وجهها على بلاط أرض المطبخ وهو لا يـزال كأنـه تحت تأثـير مخدّر لا يقوى إلا على قـول الكلمة الـوحيدة «احلفي» وأحيـاناً يتبعهـا بكلمة «لشوف...» وما أن رأيت الدماء تغـطي وجهها، حتى أخـذت أشدّ شعري وأضرب صدري تماماً كـما كانت تفعـل هي. ثم صعدت إلى الكرسي حتى الشباك وأزحت قشـور البرتقـال التي لم تجفّ بعد. كنت أود أن أستغيث بجـارنا الحـاج عيسى، لكن والدي اعتقـد أني أريـد إلقاء نفسي. وترك أمي وهجم عليّ. ووقتها فكّرت أن أقفز خوفاً منـه، عندها استجمعت أمي نفسها وهربت إلى الحمام واقفلت بابه خلفها.

٢